تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

ليست المدينةُ مجرد مظهرٍ من مظاهر الحضارة أو أمارةٍ يُسْتَدَلُّ بها على وُفُور العمران، ولكنها -على التحقيق- مقوِّمٌ رئيسٌ من المقومات التي لا يستقيم بدونها قيامُ الحضارة بالمعنى الصحيح الذي اتفق عليه مؤرخو الحضارات. ومن هنا، فإن التوفُّرَ على دراسة المدن الكبرى، والتوقُّفَ مليًّا أمام التحولات التي طرأت عليها، وإنعامَ النَّظَر إلى بنيانها المادي والروحي والفكري، كلُّ ذلك أداةٌ مهمةٌ لا يستغني عنها مؤرِّخٌ يريد فَهْمَ مسار التاريخ الإنساني فهمًا عميقًا، لا تشغله فيه الظواهرُ العارضة أو الأحداثُ الرتيبة عن استكشاف جوهره المستور ولُبابه المدخَّر.

كذلك نظر العربُ إلى المدينة في ماضيهم البعيد، وكذلك نظروا إليها في تاريخهم القريب. ولعلنا واجدون في قول الجغرافي الكبير جمال حمدان: «إن حياة المدن تقليدٌ قديمٌ متوطِّنٌ وأصيلٌ في العالم العربي، وحضارةُ العرب في جوهر كيانها حضارةُ مُدُن»[1]، لعلنا واجدون في هذا القول برهانًا صادقًا على أصالة هذه النظرة وتجذُّرها في التصور العربي، والإسلامي بالتبعية. وربما لا نجاوز الصواب إذا قلنا: إن مفهوم الإسلام نفسه من حيث هو دينٌ نزل به الوحي في المحل الأول، ثم من حيث هو نَسَقٌ حضاريٌّ في المحل الثاني، تنوَّعت مذاهبُهُ وتعدَّدت تياراتُهُ وتكوَّنت علومُهُ تكوُّنًا موصولًا بالنصِّ المقدَّس، قد تشكَّل في رحاب سلسلة مترابطة من المدن التي نشأت فوق رقعة جغرافية متراحبة تمتدُّ من الأندلس إلى الصين، ومن السهوب الأوراسية إلى أعماق إفريقيا، هي الرقعة التي تواطأ الفقهاء المسلمون على تسميتها «دار الإسلام».

ويتغيَّا هذا الكتابُ المعنون بـ**«المدن المحورية في نهوض الحضارات وسقوطها»** دراسة المدن الكبرى في العالم، واستكشاف ملامح الدور الذي نهضت به في التحولات التاريخية على الصعيدَيْن السياسي والحضاري، ومحاولة تقديم رؤية

---

(١) جمال حمدان، **المدينة العربية**، (القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٦م)، ص٢٥.

جديدة لهذه المدن من منظور ثقافي تعدُّدي. وصاحبُ هذا الكتاب أكاديميٌّ مرموق، وسياسيٌّ قدير، هو الدكتور أحمد داود أوغلو، الذي تخصَّص في دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وحصل على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية، ومارس التدريس في الجامعة سنين عددًا، مازجًا في توازن واعتدال بين عمله الأكاديمي واشتغاله بالسياسة.

ويمتاز أوغلو في جُلِّ كتاباته برؤية منفتحة لا تنكر الاختلاف ولا تضيق به، وإنما تتفهم أسبابه وبواعثه، وتحاول استثماره لدعم التعدُّدية وترسيخ قِيَم التفاعل ومبادئ التعايش. ولهذا لم يكن من المستغرب أن يستبطن أوغلو في كتابه هذا «**المدن المحورية**» فكرة التفاعل بين الحضارات المختلفة عبر التاريخ، فقد رأى مثلًا أن الحضارة الإسلامية هي التي مهَّدت السبيل أمام نمطٍ فريدٍ من التلاقح الخصب بين الموروثات الحضارية القديمة التي استوعبها الإسلامُ وبسطت دولتُهُ سلطانَهُ عليها. ثم كان أن أفضى التأثير المدمِّر للحروب الصليبية والغزوات المغولية في النظام السياسي لنطاق الحضارة الإسلامية إلى عملية أوسع نطاقًا للتفاعل الثقافي، كان لها تأثيرها الظاهرُ في القرون اللاحقة، وكان النظام العثمانيُّ بمنزلة الحلقة الأخيرة في هذا التوليف العظيم خلال الزمن الماضي.

وعلى نقيضٍ من ذلك، انطلقت الحداثةُ من أوروبا الغربية، ومن رحِمِها خرجت العولمةُ التي أوجدت بيئةً من التفاعل تتجاوز الحدود الجغرافية؛ حيث زادت قدرةُ البشر على التنقل إلى حدٍّ غير مسبوق، واكتسب التفاعل الثقافي أبعادًا جديدة كلَّ الجدة، تستعمل تقنية الاتصالات للتغلُّب على قيود الحيز والمكان. وعلى هذا النحو، فإن الدينامية الثقافية والسياسية والاقتصادية التي شهدتها النطاقاتُ الحضاريةُ القديمةُ خلال الربع الأخير من القرن العشرين، ولا سيما الصين والهند والعالم الإسلامي، تعمل على تغيير كل هذه المجالات التفاعلية تغييرًا ملحوظًا سريع الخطو؛ حيث يجري تفعيلُ بعض العوامل الجديدة التي من شأنها أن تحدِّد مستقبل الإنسانية. وهكذا، دخلت الحضارات القديمة عصرًا جديدًا من النهضة في عملية الانتقال الراهنة من الحداثة إلى العولمة.

ولمَّا كان أوغلو ينطلق من أرضية التعدُّدية الثقافية والتفاعل الحضاري، فقد أنكر فكرة المركزية الأوروبية التي نشأت خلال القرن التاسع عشر أشدَّ الإنكار، وهي الفكرةُ التي حاولت أن تصوغ نَسَقًا جديدًا للتاريخ الإنساني، تحتلُّ فيه أوروبا مركز الصدارة، في حين تُقصى سائرُ الأقطار بموروثاتها الحضارية إلى الهامش.

ولعل ما لاحظه أوغلو من التفاعل بين الحضارات الصينية والهندية والإسلامية والغربية هو الذي دفعه إلى الاهتمام بتاريخ الحضارات، بوصفه قضيةً مهمةً تستحقُّ أن يوليها مزيدًا من البحث والنظر. فكتب في هذا الإطار بحثًا بعنوان «**التفاعل بين الحضارات والتوليف العثماني**» درسَ فيه كيفية التأريخ للدولة العثمانية في إطار التفاعلات الحضارية. وله في هذا الباب أيضًا كتابُ «**العثمانيون: مزيج من الحضارات**»، الذي أوحى له بتقديم دراسة أشمل للمدن والحضارات، فجاء كتابه المهم «**المدن المحورية**» الذي نقدمه لقُرَّاء العربية.

ويتألف كتابُ «**المدن المحورية**» من ثلاثة أجزاء تضمُّ أحد عشر فصلًا. ومدارُ هذا الكتاب على دراسة سبعة أنماط من المدن، هي: المدن الرائدة التي أسَّست الحضارات، والمدن التي أسَّستها الحضاراتُ، والمدن التي اغْتُرِسَت أثناء تكوين الحضارات، ومدن الأشباح التي فَقَدت أهميتها عبر تناوب السلطة السياسية والتحولات الحضارية، والمدن المفقودة التي دمرتها الحضاراتُ، والمدن الواقعة على خطوط التفاعل الجيواقتصادي/ الجيوثقافي، والمدن التي تندمج أو تُغيِّر أو تشهد تغيرًا بفعل حضارات مختلفة. ويتخلَّل ذلك حديث شائق عن الانطباعات الفكرية التي تشكَّلت لدى أوغلو من خلال تجاربه المباشرة في المدن التي زارها، واستعراضٌ دقيقٌ لأبرز المشكلات المنهجية التي تعترض سبيل التأريخ للمدن بوجه عام والمدن العثمانية على وجه الخصوص.

وبعدُ، **فإن مركز نهوض للدراسات والبحوث** إذ يهدي قُرَّاءه الكرام هذه الترجمة الجديدة يأمُلُ أن تسدَّ فراغًا حقيقيًّا في المكتبة العربية التي تَنْدُر فيها أمثالُ هذه الدراسات التي تتخذ من التاريخ الحضاري موضوعًا لها، ومن منهج المقارنة أداةً للبحث والنظر.